بين العلامة اللغويّة والعلامة الوجوديّة - التذكير والتأنيث انموذجاً -

الباحث: يعقوب سعد حمد نايف

jacubsaad1987@gmail.com

أ. د. علي حلو حوّاس

ali.hilo@ircoedu.uobaghdad.edu.iq

جامعة بغداد كلية العلوم الإسلامية – قسم اللغة العربية

المُلخَّص

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى الوقوف عند قضية مهمة وهي حضور الجانب الوجودي في النظرية النَّحوية، إذ التعليل في البحث النّحوي يتسق مع العلة في تفسير الظاهرة النحوية، والنفود إلى ما وراءها، وشرح الاسباب المقتضية لبناء الحكم النحوي، وينتظم معها في تخطي الحقائق اللغوية، وصولًا إلى محاكاة الوجود.

لذلك تراهن هذه الدراسة الى لفت الانتباه إلى تصور جديد ذي منطلقات وجودية ولغوية، مع قوة في الاجتهاد للوصول إلى معان مخصوصة وفق رؤية كونية، وكذا إبراز البعد الوجودي الانساني لهذه القواعد اللغوية، لنبرز أنَّ اللسان العربي لسان إنساني بامتياز، وسيضرب البحث بعض الأمثلة لإثبات هذه القاعدة الكونية، وهذا التصور ليس بدعًا، فقد وجدنا له قواعد راسخة وانطلاقات من رحم القاعدة النحوية.

الكلمات المفتاحية: تأصيل، العلامة اللغوية، العلامة الوجودية، التذكير، التأنيث.

Abstract

Through this research paper, we seek to address an important issue, which is the presence of the existential aspect in grammatical theory, as the reasoning in grammatical research is consistent with the reason in interpreting the grammatical phenomenon, going beyond it, and explaining the reasons required to build the grammatical judgment, and is organized with it in overcoming linguistic facts. , all the way to simulating existence.

Therefore, this study bets on drawing attention to a new conception with existential and linguistic beginnings, with strength in striving to reach specific meanings according to a universal vision, as well as highlighting the human existential dimension of these linguistic rules, to highlight that the Arabic language is a human tongue par excellence, and the research will give some examples to prove this. The universal rule, and this perception is not heresy, as we have found established rules for it and starting from the grammatical rule.

Keywords: rooting, linguistic sign, existential sign, masculinity, feminization.

المقدمة

تُمثّل اللغة العربية قطاعًا هامًا في حياة الفكر العربي المعاصر؛ فهي القاعدة الكبرى التي قام عليها هذا التراث العظيم والأداة الحية للأدب العربي، واللسان الذي يربط الأمة؛ وهيّ أساس قوى للوحدة بين أجزاء الوطن العربي، ولا شك كانت لهذه اللغة مكانة ضخمة بين اللغات، ذلك أنَّها لم تكن لغة عاديّة كاللغات في نشأتها وتطورها وامتدادها، لذلك نجد تجسد القواعد التي لها ارتباط بالوجود على نحو لم تعرفه أيّ من اللغات الأخرى، وهذا ما سنعرض له في هذه الدراسة التي اسميناها **(بين العلامة اللغويَّة والعلامة الوجوديَّة ـ قاعدة التذكير والتأنيث انموذجًا ـ)**، والتي تقوم على أسس علمية، تدعو الى التفكّر في قواعد العربية وربطها بالواقع الخارجي الوجود، وهذا ما سنقف عنده من خلال هذه الدراسة، اقتضت طبيعة الموضوع أن يُقسّم على النحو التالي، أولًا- تأصيل التذكير والتأنيث في العربية، ثانيًا- التّذكير والتّأنيث بين العلامة اللغويَّة والعلامة الوجوديَّة، ثالثًا- التّذكير والتّأنيث والحياة العربيَّة الاجتماعيَّة، رابعًا- التّذكير والتّأنيث وعلاقته بالوجود.

أولًا- تأصيل التّذكير والتّأنيث في العربيَّة:

يُؤكّد الدّارسون المُحدثُون وجود صلة وثيقة بين مميّز الجنس النّحوي وعوامل أُخر غير لغوية موغلة في القدم، وذلك تبعًا للتصورات العقائدية والفكرية والاجتماعية الخاصة بكل شعب[١]، وفيما يَخُصُّ العرب فإنّ مزيّة التّأنيث والتّذكير قد تأصّلتْ في لغتهم قديمًا، من عهد اشتغالهم بالرّعاية وتقسيمهم الأحياء إلى أزواج، وإطلاقهم معنى الزّوج على الاثنين مرة، وعلى الفرد المُتمّم للجنس الآخر مرّة أخرى[٢].

وتقوم فكرة التّذكير والتّأنيث في هذه المرحلة على المخالفة بين المذكر والمؤنث ليس بالعلامة النَّحوية، وإنّما بصيغة معجمية منفردة بنفسها لكلا النّوعين، وتُعدّ هذه المرحلة مرحلة موغلة في القدَم في تأريخ التعرّف الفكري لمسألة الجنس بعامة[٣]، وهي من الشّواهد الدَّالة على قِدَم اللغة العربيَّة وأصَالتها[٤]. وتُعدّ" ظواهر التّمييز والتّخصيص في الصّفات إجمالًا، وفي المُفردات على التَّعميم، كالتَّمييز بين المذكر والمُثنَّى والجمع، من الدلائل اللغوية على تطوّر اللغة العربيَّة، وهي جميعها تشكّل مزايا تمّتْ للغة العربيَّة على مثال لم تسبقها إليه لغة من لغات الحضارة"[٥].

وقد كان علماء العربية القدماء على فطنة بهذه المرحلة المُبكرة في التّذكير والتّأنيث، إذ ورد في قول (بهاء الدّين بن النّحاس) في التّعليقة على المُعرّب:" كان الأصل أنْ يُوضع لكل مؤنث لفظ من غير لفظ المُذكّر، كما قالوا: عِير، وأتان، وجدي، وعناق، وجمل، ورجل، وحصان، وحجر، إلى غير ذلك"[٦]، والدّوال على هذه المرحلة تُلاحظ فيما أورده رواة اللغة من كلمات تتأرجح أو تتساوى بين التّذكير والتّأنيث، على نحو بناء (فعيل) و (فعول) مثل:(جريح، وطريد، وكذوب، وصبور)[٧]، وفي تجريد الصّفات المختصة بالمؤنث الحقيقي من علامات التّأنيث، وتجيء عادة على وزن (فاعل) مثل:(حائض، وطامث، وكاعب)[٨]؛ لذلك يرى بعض الدّارسين أنّ الشّواهد القُرآنية وغيرها، الّتي جاءتْ فيها هذه الصّفات خالية من علامة التّأنيث، تمثل رجوعًا إلى الأصل التّأريخي؛ لأنّ التّذكير هو الأمر القديم، والتّأنيث هو الأمر الحديث العارض[٩].

وهذا التّعليل بعيد عن الواقع، ولكن يمكن القول أنَّ المؤنث فرع، لذلك احتيج إلى علامة تميّزه مِن الأصل المذكر، ومع هذا أنَّنا نجد بعض الأوصاف جُردت من علاماتها اللفظية (كالتّاء مثلًا) لوجود قرينة أو علامة معنوية[١٠]، ولا حاجة للجمع بين علامتين تؤديان الوظيفة نفسها[١١]. فمثلًا في قولنا: امرأة (حائض) و(حامل)، يقول الفراء:" (امرأة حائض) و(طاهر) و(طامث) و(طالق) و(شاة حامل)،... فلم يُدخلوا فيهنَّ الهاء، وإنَّما دعاهم إلى ذلك أنَّ هذا وصف لا حظ فيه للذكر، وإنَّما هو خاص بالمؤنث، فلم يحتاجوا إلى الهاء؛ لأنَّها إنَّما أدخلت في (قائمة) و(جالسة)؛ لتفرّق بين فعل الأُنثى والذّكر، فلما لم يكن للذكر في الحيض والطمث... لم يحتاجوا إلى فرق"[١٢]، فالحيض خصيصة في المرأة لا يحتاج إلى تأنيث، كذلك في الحمل نقول امرأة حامل، وهنا يوجد أصل واحد، إنَّما قلنا ذلك لأنَّ علامة التّأنيث إنَّما دخلت في الأصل للفصل بين المذكر والمؤنث، ولا اشتراك بين المؤنث والمذكر في هذه الأوصاف[١٣]، وهذا التّعليل اقرب الى الواقع اللغوي، من الرّأي السّابق الذي رأى أصحابه أنَّ التّذكير قديم، والتّأنيث حديث عارض، وأقرب منه أنّ نقول التّذكير أصل والتّأنيث فرع عليه.

ثانيًا- التّذكير والتّأنيث بين العلامة اللغويَّة والعلامة الوجوديَّة:

التّصنيف الطَّبيعي الحيوي (البيولوجي) في أنَّ الإنسان منذ وجوده فكَّر في الجنس، وشُغِل به، (فآدم) لم يُخلق وحيدًا ذكرًا، بل خلق الله معه أنثى، وتجلَّت حكمته، وكانت سنته في الكون وخلوده عن

طريق الذّكورة والأنوثة، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهذا مطرد في معظم المخلوقات، والتَّمايز بينهما وارد، فلكل منهما خصائصه البيولوجية، ولكل واحد منهما وظيفته التي يؤديها لاستمرارية النوع، وحفظ النسل[١٤].

لفت الجنس نظر الإنسان الأول، ولهذا بيَّنت كل تجارب الحياة للإنسان الناطق أنَّه من الواجب التفرقة بين الذكر والأنثى وتمييزهما سواء كان هذا في عالم الإنسان، أو عالم الحيوان[١٥]، فلا ريب في تفكُّر الإنسان منذ بداية خلقه في الجنس، وتنبَّه أثناء التعبير إلى التَّفريق بين نوعيه، فطبائع الأشياء تقودنا إلى حقيقة أصولها في كثير من قضايا الفكر[١٦]، وإذا أردنا أن نلمح إلى القضية في شيء من الشّمول فعلينا أنْ نُشير إلى التّفرقة (البيولوجية) بين الذّكر، والأُنثى، في المخلوقات المختلفة، وهذا الخلاف البيولوجي يستوجب التّمييز اللغوي، فاللغة أداة التّوصيل والتّعبير، لذلك يقتضي الوجود الإنساني والمنطق الطبيعي في الأشياء كلها التذكير والتأنيث[١٧]،" ولمَّا كانت اللغة انعكاسًا للإنسان، ظاهره وباطنه، فقد أثَّرتْ قضية الجنس فيها تأثيرًا شاملًا، ويبدو ذلك جليًا في كل لغات العالم، بالرغم من الاختلاف بينها في النظرة إلى تنويع كثير من المسميات تحت نوع المذكر والمؤنث، أو الخروج عنهما"[١٨]. واللغة كما ألمحنا، أنَّها وسيلة النّاس في التّواصل، والتّعبير عن الأنماط الثّقافيّة والاجتماعيّة، كان طبيعيًا أنْ تستجيب اللغة لهذه المقتضيات، فتعبِّر عن خصائص شكْليّة تُميّز الانثى من الذّكر[١٩].

ومن المعلوم أنَّ اللغات البشرية، لم تسرْ كلّها على نمط واحد وبنفس الوتيرة، فقد وزَّعت اللغات السَّامية، أسماء القسم الثّالث، وهو (المحايد) على القسمين الآخرين[٢٠]، وصارت الأسماء فيها إمَّا مذكرة وإمَّا مؤنثة[٢١]، ومِمّن أشَار الى هذا المعنى المستشرق (رايت) إذ يقول:" اعْتبَر خيال السَّاميين النَّشيط كل الأشياء ــ حتى تلك التي لا حياة فيها ــ ذات حياة وشخصيَّة"[٢٢].

ومن هنا علينا أن نربط بين قضية التّذكير والتّأنيث في اللغة العربيَّة وبين الحياة الاجتماعية للعرب، فاللغة ترجمة حقيقيَّة للأفكار والمشاعر والتّقاليد وما يحيط بالمُتحدث، ومن حيث هذه الفكرة نجد أنَّ العرب قد احترموا فكرة التّذكير والتّأنيث إلى حدٍّ بعيد، ولقد ذكرنا أنَّ العرب قد أدرجوا كل المُسمّيات تحت نوع من نوعي المذكرات والمؤنثات، وهم في حياتهم الاجتماعية يُبدون اهتمامًا كبيرًا بهذا التّقسيم النّوعي، أو الجِنسي؛ فليس إطلاق التَّذكير أو التَّأنيث شيئًا لا يلفت النَّظر والفكر

والاهتمام فقط، بل إنَّه يثير كثيرًا من الشَّجن، وتحريك العَاطفة إزاء شعور ما قد يؤدي بالعربي الى سلوك معيّن[٢٣]، وهذا سَيُبَان لنا من هذا التَّفريق بين الأصل والفرع، وبين تغليب المذكر على المؤنث وهكذا.

ثالثًا- التّذكير والتّأنيث والحياة العربيَّة الاجتماعيَّة:

١- الأصل والفرع:

يكاد النُّحاة العرب يُجمعون أنَّ المذكر أصل والمؤنث فرع عليه[٢٤]، واختلاف الفرع عن الأصل أوجب علامات مميزة في الفرع لا في الاصل؛ فالأصل لا علامة له لأنَّه بنفسه علامة، أمّا الفرع فيحتاج الى علامة[٢٥]، وقد بيَّن (سيبويه) سبب تقديم المذكر على المؤنث عند العرب بقوله:" واعلم أنَّ المذكر أخفُّ عليهم من المؤنث؛ لأنَّ المذكر أوَّل، وهو أشدُّ تمكُّنًا، وإنَّما يخرج التأنيث من التذكير. ألا ترى أنَّ (الشّيء) يقع على كل ما أخبر عنه من قبل أن يُعلَم أذكرٌ هو، أو أنثى، والشّيء ذكر"[٢٦].

فـ" التّذكير لا يحتاج إلى علامة، إذ كان هو الأصل، والأصول مستغنية بالأوضاع الأُوَلِ عن العلامات الطّارئة للفرق، وإنَّما ذاك أمر بابه الفروع"[٢٧].

قُدِّمَ المذكر على المؤنث لخفته فمسألة الخفة والثّقل من المسائل الكبرى التي بنى (سيبويه) عليها النَّحو، فضلًا عن اعتماده كثرة الاستعمال، وعدَّه دليلًا على خفة المستعمل؛ لذلك استشهد بـ (الشّيء) بوصفه أكثر استعمالًا، وهو في الأصل مذكر، ولابُدَّ من الإشارة هنا إلى مسألة مهمة تبرر تقديم المذكر على المؤنث عند سيبويه، وهي الجانب العقدي[٢٨]، وفي هذا الصّدد يقول (إدريس مقبول):" الأصل في الأشياء عند سيبويه التّذكير، ثم إنَّ التّأنيث لاحقٌ به ومُشتقٌّ منه، وهو فيما يعتقده، لا شكَّ في أنَّه يصدر عن معتقد ديني كلامي يُعطي الأسبقية في الوجود لآدم باعتباره الأول في الآدميين، وإليه نُسبوا وبعده خرجت الأنثى إلى الوجود منه...، ولا يُخفى أنَّ لهذه الأسبقية في الوجود والخلق أثرًا واضحًا في تقديم سيبويه في تصوره الديني ونظره النحوي الشيء المذكر على المؤنث، وكما اشتُقَّت حواء من آدم يوم شاء الله عز وجل وأذِن فقامت كيانًا في الواقع، يُشتَقُّ المؤنث من المذكر، فيخرج أيضًا كيان لغوي يختلف عن الأصل"[٢٩].

٢- تغليب الشّيء المُذكر على الشّيء المُؤنث:

لمَّا كانت اللغة مرأة لمقاصد النَّاس وأفكارهم، ووعاء لثقافاتهم ومرادهم، تشكلت في لغة العرب تلك القسمة اللغوية الثُّنائية: (مذكر، مؤنث)، فهذا كان شائعا في كلام العرب، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين على ما هو معهود من لسان العرب وجار في خطابهم، وتبعًا لذلك شاع في القرآن الكريم تغليب المذكر على المؤنث[٣٠]. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ آل عمران: ١٩٥، ولهذه الأصالة عدة أسباب، منها مسؤولية الرجل على المرأة، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ البقرة: ٢٢٨ ، أي في الانفاق والقيام بالمصالح والقوامة وفروق الخلقة والقوة الجسدية، وليس الذّكر كالأنثى في التّركيب البدني والهرموني والدّماغي، وقد أشار العلماء العرب إلى أنَّ الفرع يفتقر إلى الأصل، هذه مسألة لغوية، إلا أنَّ هذا الافتقار حقيقة وجودية، وهي مسألة فطرية طبيعية في تكوين المرأة، إنَّ الله سبحانه وتعالى فطر المرأة على الحسّ المرهف، والطبع الرقيق الذي يتأثر بالعاطفة، في حين خلق الرجل عقلانيًا ذا تفكير يناسبه الطرح العقلي بعيدًا عن العاطفة، لهذا تناسب تقديم المذكر على المؤنث في القرآن الكريم وفي اللغة أيضًا[٣١]، وفي الصدد نفسه يذكر (أبو البركات الأنباري) في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ ﴾ إبراهيم: ٣٣، (دائبين) منصوب على الحال من (الشَّمس والقمر)، وذُكر تغليبًا للقمر على الشّمس، لأنَّ القمر مذكر والشّمس مؤنثة، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب جانب المذكر على جانب المؤنث لأنَّ التّذكير هو الأصل[٣٢].

٣- اوصاف جُرّدت من العلامة اللفظية:

أشرنَا سابقًا إلى أنَّ المؤنث فرع، لذلك احتيج إلى علامة تميّزه من الأصل، وعلامة التّأنيث التاء أو الالف المقصورة أو الممدودة[٣٣]، إلا أنَّنا نجد بعض الأوصاف جُرّدت من علاماتها اللفظية (كالتّاء مثلًا)[٣٤]، لوجود قرينة أو علامة معنوية[٣٥]، ولا حاجة للجمع بين علامتين تؤديان الوظيفة نفسها[٣٦]. فمثلًا في قولنا: امرأة (حائض) و(حامل)[٣٧]، يقول الفراء:" فلم يدخلوا فيهنَّ الهاء، وإنَّما دعاهم إلى ذلك أنَّ هذا وصف لا حظ فيه للذكر، وإنَّما هو خاص بالمؤنث، فلم يحتاجوا إلى الهاء؛ لأنَّها إنَّما أُدخلت في (قائمة) و(جالسة)؛ لتفرّق بين فعل الأنثى والذكر، فلما لم يكن للذكر في الحيض والطمث، وما ذكرنا حظ، لم يحتاجوا إلى فرق"[٣٨]، فالحيض خصيصة في المرأة لا يحتاج إلى تأنيث[٣٩]، كذلك في

الحمل نقول امرأة حامل، وهنا يوجد أصل واحد، " إنَّما قلنا ذلك لأنَّ علامة التأنيث إنَّما دخلت في الأصل للفصل بين المذكر والمؤنث، ولا اشتراك بين المؤنث والمذكر في هذه الأوصاف"[٤٠]، واللغة العربية في ذلك قد اتبعت العقل وسارت مع المتفق عليه منطقيا" ذلك أنَّ علامة للتأنيث إنَّما جاءت لكي تفرّق بين المؤنث والمذكر، فإذا كانت الصفة خاصة بالمؤنث...، فلا داعي أبدًا لإنهائها بعلامة التأنيث (التاء، أو الألف)"[٤١].

إذن، فقاعدة التّذكير والتّأنيث تنسجم مع الواقع والوجود، فلو قلنا (حاملة) لاقتضى الأمر أن يحمل الرجل أيضًا، لكن مراعاة للتكوين البيولوجي للرجل، وتناسبًا مع طبيعة خلق المرأة وتكوينها الجسمي، جُعلت هذه الأوصاف أصلًا لا فرعَ فيها وتجدر الإشارة إلى مسألة أخرى، وهي أنَّ بعض الأوصاف تتجرد من العلامة سواء في التأنيث أو في التذكير؛ إذ نقول: (رجل عاقر) و(امرأة عاقر) دون أن نضيف علامة التأنيث. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ آل عمران: ٤٠، فلو قال (عاقرة) لاختص العقر بجنس بعينه، فعندما نكون أمام (الأصل والفرع) نحتاج إلى علامة تُسمّي لنا الفرع، ولمَّا كان العقر خصيصة يشترك فيها الرجل والمرأة تجردت لفظة (العقر) في الدلالة على اسم الفاعل من العلامة. فلو اقترنت بالتاء مع المرأة (عاقرة) لدل ذلك على أنَّ العقر أصل في الرجل، بهذا نجد أنَّ هذا اللسان العجيب يتميّز بنظام فريد يجعله يميز بين جزئيات لغوية مختلفة ينسجم فيها مع الكون والوجود والإنسان[٤٢].

إنَّ اللسانَ العربي لسان أسرة، ولسان تجمّع، يقوم على تسلسل من الأصل إلى الفرع. وهذا ما برز نتيجة التطابق بين اللغة والوجود من خلال قاعدة التذكير والتأنيث، لنصل لمسألة مهمة وهي أنَّ اللسان العربي لسان خصَّه الله سبحانه وتعالى بنظام ذكي وفريد يجعله يميز بين جزئيات لغوية مختلفة ينسجم فيها مع الكون، حتى إذا أتينا لآي القرآن، نستحضر تلك العلامات بوصفها أنظمة ذكية تصرفنا لفهم بعض كلام الله، إنَّ التّرابط بين اللغة والوجود يصل إلى حد التّطابق مثلما بدأ جليًا من خلال قضية التّذكير والتّأنيث؛ فالتذكير أصل والتّأنيث فرع عنه[٤٣]، ولولا هذا التّفريق بينهما لما استطاع جنس الانسان العَيش على ظهر الأرض، لانّ حكمة الخالق اقتضت هذا التّقسيم الوجودي

الكوني لهذه الثّنائية ليستمر الوجود وتتناسل الكائنات بالاعتماد على مبدأ الأصل والفرع الذي بيّناه، وبالأحرى مبدأ التّذكير والتّأنيث.

رابعًا- التّذكير والتّأنيث وعلاقته بالوجود:

يقتضي الوجود الإنساني والمنطق الطبيعي في الأشياء كلها التذكير والتأنيث، وعليه من لزوم اللغات البشرية أن تحاكي هذا الواقع وتعبّر عنه بالدقّة المطلوبة[٤٤]، تتميّز العربيَّة" بنظام ضمائريّ دقيق للغاية، يسهل معه التَّفريق الدَّقيق جدًا بين جميع الشَّخصيات داخل الخطاب، دون الحاجة إلى تكرار الأسماء الظاهرة. إذ يُميّز هذا النَّظام العربي بوضوح الضَّمير، وعدده، وجنسه"[٤٥]، ومن هذا التَّفريق الّذي تميّزت به في فصلها بين جمع الذّكور، وجمع الإناث في بنى الضّمائر، وهذا ما دلَّ عليه (كارل هيكر) إذ يرى أنَّه يتحقق التَّفريق في الجنس بين الضمائر[٤٦].

اللغة العربية هي اللغة التي تحترم حقوق النَّاس أجمعين في التَّعبير، كما سنرى في أفراد الضَّمائر وتفريقها على الاجناس، من غير خلط بينها، أو التّباس في الجنس والعدد فجعلت لكل واحد منهم ضميرًا. وأكثر من ذلك، فالمرأة لا تجد التَّكريم في اللغات الأخرى أكثر مما تجده في العربية؛ فكما أنَّ لكل مذكر ضميرًا مفردًا كان، أو مثنى، أو جمعًا نجد للمؤنث ضميرًا مقابلًا وبالتساوي لا ينقص منه شيءٌ. وهذا لا يُوجد في اللغات الأخرى؛ ففي الفرنسية مثلًا نجد ذلك حاضرًا في (elle ,elle's)، ولكن بشكل مقتضب، في حين لا نجد مقابلًا للمؤنث في الضَّمائر الأخرى[٤٧]، وفي الإنجليزيَّة نجد (he, she ,it) فقط، ولا نجد تفريقًا في باقي أنواع الضّمائر الأخرى[٤٨]، وكذلك اللغة الفنلندية ليس فيها الا صيغة واحدة لضمير الشّخص الغائب المذكر والمؤنث (ban)[٤٩]، لكنَّ اللغة العربية جعلت لكل ضمير مذكر صيغة مقابلة مماثلة دالة على المؤنث وهكذا، لذلك الضّمير في حالة الخطاب، والغياب، يحتاج إلى التّمييّز في الجنْس والعدد، فميَّزته اللغة العربية وميَّزت الفعل مع الضّـمائر المُختلفة في العَدد، وفي الجِنس[٥٠]، وميَّزت بين الفعل في حالة التّكلم، وحالة الخطاب، وحالة الغياب[٥١]، فنقول:" في حالة الخطاب للرجل (أنتَ كتبتَ)، وللمرأة (أنتِ كتبتِ)، وللرجال (أنتم كتبتم)، وللنساء (أنتُنَّ كتبتُنَّ)، وللمثنى بنوعيه (أنتما كتبتما). ونقول في حالة الغياب للرجل: (هو كتب)، وللمرأة (هي كتبت)، وللرجال (هم كتبوا)، وللنساء (هُنَّ كتبْنَ)، وللمثنى بنوعيه (هُما كتبا). بينما الضمائر في اللغات الأخرى لا تعرف المثنى، ولا تفرّق الإنجليزية بين الضَّمير المذكر، والضَّمير

المؤنث، إلا في حالة المفرد الغائب، ويتساوى ضمير المخاطب في الإنجليزية في حالة الإفراد والتَّثنية والجمع"[٥٢]. أفلا يكون هذا نوعًا من حقوق الإنسان؟ أفلا تكون العربية اللغة الإنسانية ـ بامتياز ـ التي تحترم المرأة وتمنحها من الضّمائر للتعبير عن كينونتها وخصوصيَّتها كما للمذكر[٥٣]. لذلك فإنَّ القِسمَ الأعْظَم من لغات البَشر لا تُميّز في ضمائرها بين المذكر والمؤنث، إلّا في ضمير الغائب باستثناء العربية[٥٤]، وبعد التتبع وجدت مثالًا واقعيًا حصل مع (محمّد اسماعيلي علوي)، وهو متخصص بتدريس العربية لغير الناطقين بها، يذكر أنَّه كان يعلّم طلبة أجانب اللغة العربية؛ فسألته طالبة أجنبية عن سبب كثرة الضمائر في العربية من دون طائل، وقد استدلت على أنَّ إنجليزيتها أسهل وأيسر وأحسن من العربية، وصفتها بقولها بالإنجليزية (Arabic is the crazy language) يقول: قلت لها بإنجليزيتها (this is kind fo human rights) والمعنى (هذا نوع من حقوق الإنسان في عربيتي) ففهمت قصدي واندهشت، وقالت: (I didn't realize that before) والمعنى (لم أدرك هذه الحقيقة من قبل)[٥٥].

هذا ما يجعلنا نُؤكّد أنّ اللغة العربيّة لغة (بيولوجية)، لأنَّها تحترم الطبيعة البيولوجية للمخلوقات التي تخضع بالضرورة لمبدأ الفردية، ومبدأ التَّثنية ومبدأ الجماعة، وهي لغة (إنسانية)؛ لأنَّها تحترم خصوصيات النّوع الإنساني بين التَذكير والتَأنيث[٥٦]،" فتجعل لِكُلِّ نوع ما يستحقُّه من أدوات التّعبير المناسبة، فكانت الضّمائر المختلفة سبيلًا إلى هذا التّمايز، ووسيلة خاصة لِتَعبير عن النّفس، فتعبير الرّجل عن نفسه يختلف عن تعبير المرأة، بل إنَّ الرّجل كيانًا وشكلًا ومقومات جسدية ونفسيّة يختلف عن المرأة التي ميّزها الله بجسد ومشاعر خاصة، فَلِمَ لا يكون لكل واحد منهما أدواته الخاصة أيضًا في التَّعبير، ولِمَ لا يكون لكل واحد منهما ضمائره الخاصَّة به النَّاطقة باسمه"[٥٧].

وقد بيَّنت كل تجارب الحياة للإنسان النّاطق أنَّه من الواجب التَّفرقة بين الذّكر والأنثى، وتمييزهما، سواء كان هذا في عالم الإنسان، أو عالم الحيوان. وكان من الطبيعي والمنطقي أيضًا، أن اللغة حين تعالج فكرة الجنس، تفرِّق بين المذكر والمؤنث. ولذا نرى الأسماء التي تدل على التَّأنيث تعامل معاملة مغايرة لتلك التي تدل على التذكير[٥٨].

وتميّز اللغة العربية في إطار العزو الجنسي بين ناحيتين رئيسيتين هما التذكير والتأنيث، ولا يقف هذا التقسيم بهذه الثنائية عند حدود الموجودات التي تتمايز على أساس السمات البيولوجية الحقيقية

للجنس، بل ينطبق على سائر المسميات بما في ذلك الجماد، والمعاني وما يدخل فيها من أفكار ومشاعر وأمور غيبية أو مجردة[٥٩].

وبالمقارنة بالإنجليزية فإنَّ العربية تتخذ مسألة تذكير وتأنيث الاسماء بكل جدية، أي أنَّ أسماء الكائنات الحيّة وأسماء الاشياء الجامدة تكون إمَّا مؤنثة أو مذكرة. وهكذا يبدو وكأنَّ موقف لغة الضاد يعزز القانون الكوني العام للتأنيث والتذكير الذي تُلخصه الآية الكريمة[٦٠]: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات: ٤٩.

الخاتمة

١. يؤكّد البحث أنّ مزيّة التّأنيث والتّذكير قد تأصّلتْ في لغتهم قديمًا، من عهد اشتغالهم بالرّعاية وتقسيمهم الأحياء إلى أزواج، وإطلاقهم معنى الزّوج على الاثنين مرة، وعلى الفرد المُتمّم للجنس الآخر مرّة أخرى.
٢. يصل الباحث الى أنَّه يُمكن نربط بين قضية التّذكير والتّأنيث في اللغة العربيَّة وبين الحياة الاجتماعية للعرب، فاللغة ترجمة حقيقيَّة للأفكار والمشاعر والتّقاليد وما يحيط بالمُتحدث، ومن حيث هذه الفكرة نجد أنَّ العرب قد احترموا فكرة التّذكير والتّأنيث إلى حدٍّ بعيد.
٣. وبهذا يصل البحث الى حقيقة مفادها أنَّ التذكير قاعدة وجودية قبل أن يكون قاعدة نحوية، وهذا ما دأب اليه البحث من الوهلة الأولى، وهو تصوّر نتبنّاه ونجزم بأصالته في العربية.
٤. ومن خلال هذه الدراسة نستطيع الجزم أنَّ العربية لغة (إنسانية)؛ لأنَّها تحترم خصوصيات النّوع الإنساني بين التَذكير والتَأنيث، فتجعل لِكُلِّ نوع ما يستحقُّه من أدوات التّعبير المناسبة، فكانت الضّمائر المختلفة سبيلًا إلى هذا التّمايز.

المصادر

القرآن الكريم.

المراجع:

١. من أسرار اللغة: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة، ط٣، ١٩٦٦م.

٢. مدخل الى اللسانيات: برتيل مالمبرج، تر: السيد عبد الظاهر، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م.

٣. التّحليل التّقابلي للغة العربية واللغة الإنجليزية ـ المُستوى النّحوي أنموذجًا: سلاوي سعيدة، وبرشيش عز الدين، الناشر جامعة أحمد دراية، ٢٠١٤م.

٤. دراسة تقابلية بين العربية والانجليزية: أحمد مصطفى، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، المجلد٢ / العدد٢١.

٥. منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة دراسة تقابلية: د. عبد المجيد الطيب عمر، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، ط٢، ١٤٣٧هـ.

٦. دراسة ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغات السامية واللغات الأوروبية وكيفية الاستفادة منها في تدريس اللغات (دراسة مقارنة): مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد ١٦٢، الجزء٢، ٢٠١٥م.

٧. الجنس اللغوي في اللغتين العربية والفارسية دراسة تقابلية: د. نيفين محمود الخولي، رسالة المشرق، كلية الاداب، جامعة طنطا.

٨. نحو العلامة الوجودي تصوّر معرفي جديد في تحليل الخطاب القرآني: د. محمّد اسماعيلي علوي، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٢٣م.

٩. أسباب تفوق لغة الضاد على اللغات الحية في الدقة التعبيرية ووفرة المعلومات في التعريف بجنسي الذكر والانثى: د. محمود الذوادي، مجلة التعريب، العدد٢، ١٩٩٢م.

١٠. اللغة العربيَّة في إطار اللغات السَّاميَّة: كارل هيكر، من ضمن دراسات في العربية أصولها مراحلها التاريخية بنيتها لهجاتها علاقتها باخواتها الساميات: لمجموعة من المستشرقين، حرره فيشر، تر: د. سعيد حسن بحيري، مكتبة الاداب، القاهرة.

١١. اللغة العربية لغة بيولوجية ووجودية، الضمائر ووظيفتها الوجودية: د. محمّد اسماعيلي علوي، مقالة على موقع https://iitilaf.org/ الائتلاف الوطني من اجل اللغة العربية.
١٢. تاء التأنيث بين اللغة العربيَّة الجنوبية القديمة (المسند) واللغة العربيّة (دراسة مقارنة): د. فتحي عبد العزيز حدّاد، حولية كلية البنات، جامعة عين الشمس، العدد٦/ ٢٠٠٥م.
١٣. اللغة العربية أصل اللغات العالمية: د. ناصر محي الدين ملوحي، دار الغسق للنشر، ط٢، ٢٠٢٠م.
١٤. الفلسفة اللغوية والالفاظ العربيّة: جرجي زيدان، دار الحداثة، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٧م.
١٥. اللغة العربية تأريخها ومستوياتها وتأثيرها: كيس فرستيخ، تر: محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٣م.
١٦. جذور اللسانيات في العربيّة: د. ساجد شريف عطيّة، مركز فاعلون للبحوث والدراسات، ط٤، ٢٠٢١م.
١٧. استعمال قواعد اللغة الفرنسيّة: شاهيناز رجب، الناشر دار القلم العربي.
١٨. نحو العلامة وتحليل القاعدة النَّحوية المذكر والمؤنث انموذجًا: خديجة فخري، مجلة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة.
١٩. المذكر والمؤنث: لابي زكريا الفراء، تح: د. رمضان عبد التواب، مكتبة دار التراث، ط٢.
٢٠. في علم اللغة التقابلي دراسة تطبيقيّة: د. أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعيّة، الاسكندريّة، ١٩٨٥م.
٢١. البلغة بين المذكر والمؤنث: لابي البركات الانباري، تح: د. رمضان عبد التواب، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.
٢٢. العربية الفصحى المعاصرة واصولها التراثية: سعيد سوسة، دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.

٢٣. البيان في غريب إعراب القرآن: أبو بركات الانباري، تح: د. طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

٢٤. فقه اللغات السامية: كارل بروكلمان، تر: د. رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض، ١٩٧٧م.

٢٥. مبادئ العربية في تأنيث الأسماء وتذكيرها نظرة في مواجهة صعوبة التعلم: عبد الحميد الاقطش، وأمجد طلافحة، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، ٢٠١٤م.

٢٦. ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السّامية دراسة لغوية تأصيلية: د. إسماعيل أحمد عمايرة، مركز الكتاب العربي، عمَّان، ط١، ١٩٨٦م.

٢٧. التّأنيث في اللغة العربية: د. إبراهيم إبراهيم بركات، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة.

٢٨. سيبويه معتزليًا حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي: د. ادريس مقبول، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط١، ٢٠١٥م.

٢٩. نظرية الأصل والفرع في النحو العربي: د. حسن خميس الملخ، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠١م.

٣٠. الكتاب: لسيبويه، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط١.

٣١. المرتجل: لابي محمّد عبد الله بن الخشاب، تح: علي حيدر، مجمع اللغة العربية، دمشق.

٣٢. الاسماء العربية في الأردن ١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠ دراسة لسانية اجتماعية: د. وليد العنّاتي، مجلة البصائر، العدد٢، مج٦، ٢٠٠٢م.

٣٣. مبحث في سلامة العربية: د. مصطفى جواد، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد١/ ١٩٩٥م.

٣٤. عالمية اللغة العربية وهيمنتها على اللغات الأخرى، قراءة ناقدة في تقسيم اللغات: د. جاسم علي جاسم، أعمال المؤتمر الدولي للغة العربية، جاكارتا/ إندونيسيا، مج١،٢٣ ـ ٢٥/٢٠١٥م.

٣٥. المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

٣٦. الأشباه والنظائر في النحو: جلال الدين السيوطي، تح: غازي طليمات وعبد الاله نبهان وأحمد مختار الشريف وإبراهيم محمّد عبد الله، مجمع اللغة العربية، سوريا، ط١، ١٩٨٧م.

٣٧. اشتات مجتمعات في اللغة والادب: عباس محمود العقّاد، دار المعارف، القاهرة، ط٦.

٣٨. التطور النحوي للغة العربية: براجشتراسر، تر: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٢، ١٩٩٤م.

٣٩. العدد في اللغة العربية: عباس محمود العقاد، مجلة الأزهر، الجزء ١، ١٩٦٣م.

الهوامش

[١] ينظر: من أسرار اللغة: ١٣٤ـ ١٣٩.

[٢] ينظر: العدد في اللغة العربية: ١١.

[٣] ينظر: التطور النحوي للغة العربية: ١١٤.

[٤] ينظر: ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية دراسة لغوية تأصيلية: ٣٦.

[٥] أشتات مجتمعات: ١١٧.

[٦] الأشباه والنظائر في النحو: ٧١/١.

[٧] ينظر: مبحث في سلامة العربية: ٢٤٤.

[٨] ينظر: مبادئ العربية في تأنيث الأسماء وتذكيرها نظرة في مواجهة صعوبة التعلم:٧٠.

[٩] ينظر: مبحث في سلامة العربية: ٢٤٤.

[١٠] مبادئ العربية في تأنيث الأسماء وتذكيرها نظرة في مواجهة صعوبة التعلم: ٧٠.

[١١] ينظر: ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية دراسة لغوية تأصيلية: ٣٤.

[١٢] المذكر والمؤنث: لابي زكريا الفراء، ٥٢.

[١٣] ينظر: نحو العلامة وتحليل القاعدة النحوية المذكر والمؤنث انموذجًا: ٧.

[١٤] ينظر: التأنيث في اللغة العربية: ١٥.

[١٥] ينظر: من أسرار اللغة: ١٤٣.

[١٦] ينظر: التَّأنيث في اللغة العربية: ١٨.

[١٧] ينظر: نحو العلامة الوُجوديّ تصوّرٌ معرفيٌ جديدٌ في تحليل الخطاب القرآنيّ: ٥٤.

[١٨] التَّأنيث في اللغة العربية: ١٨.

[١٩] ينظر: الاسماء العربية في الأردن ١٩٧٠ ـ ٢٠٠٠ دراسة لسانية اجتماعية: ١٣٠ ـ ١٣١.

[٢٠] ينظر: جذور اللسانيات في العربية: ٥٨٨.

[٢١] ينظر: عالميّة اللغة العربيّة وهيمنتها على اللغات الأخرى: قراءة ناقدة في تقسيم اللغات: ١٣.

[٢٢] المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ٢٥٢.

[٢٣] ينظر: التَّأنيث في اللغة العربيّة: ٢٧.

[٢٤] ينظر: نظرية الأصل والفرع في النحو العربي: ٨٦.

[٢٥] ينظر: نحو العلامة الوُجوديّ تصوّرٌ معرفيٌ جديدٌ في تحليل الخطاب القرآنيّ: ٤٨.

[٢٦] الكتاب: تح: عبد السلام هارون، ٢٢/١.

[٢٧] المرتجل في شرح الجمل: لابن الخشاب، ٦٣.

[٢٨] ينظر: نحو العلامة وتعليل القاعدة النحوية: التذكير والتأنيث انموذجًا: ٥.

[٢٩] سيبويه معتزليًا حفريات في ميتافيزيقا النحو العربي: ١١٢.

[٣٠] ينظر: التأنيث في اللغة العربية: ١٦ ــ ١٨.

[٣١] ينظر: نحو العلامة وتحليل القاعدة النحوية: التذكير والتأنيث انموذجًا: ٥ ــ ٦.

[٣٢] ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن: ٥٩/٢.

[٣٣] ينظر: في علم اللغة التّقابلي دراسة تطبيقية:١٠١.

[٣٤] ينظر: فقه اللغات السامية: ٩٥.

[٣٥] مبادئ العربية في تأنيث الأسماء وتذكيرها نظرة في مواجهة صعوبة التعلم: ٧٠.

[٣٦] ينظر: ظاهرة التأنيث بين اللغة العربية واللغات السامية دراسة لغوية تأصيلية: ٣٤.

[٣٧] ينظر: العربية الفصحى المعاصرة واصولها التراثية: ١٢٩.

[٣٨] المذكر والمؤنث: لابي زكريا الفراء، ٥٢.

[٣٩] ينظر: البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث: ٤٨.

[٤٠] نحو العلامة وتحليل القاعدة النحوية المذكر والمؤنث انموذجًا: ٧.

[٤١] في علم اللغة التقابلي دراسة تطبيقية: ١١٣.

[٤٢] ينظر: نحو العلامة وتحليل القاعدة النحوية المذكر والمؤنث انموذجًا: ٧.

[٤٣] ينظر: نحو العلامة وتحليل القاعدة النحوية المذكر والمؤنث انموذجًا: ٧ـ ٨.

[٤٤] ينظر: نحو العلامة الوجودي تصور معرفي جديد في تحليل الخطاب القرآنيّ: ٥٤.

[٤٥] الوظائف الخطابيّة للضمائر في العربية مع دراسة مقارنة لنظام الضمائر في كل من العربية والإنجليزية: ٢٢.

[٤٦] العربية في إطار اللغات السامية: ٣٣.

[٤٧] ينظر: استعمال قواعد اللغة الفرنسيّة: ٨.

[٤٨] ينظر: دراسة ظاهرة التَّذكير والتأنيث في اللغات السامية واللغات الاوربية وكيفية الاستفادة منها في تدريس اللغات دراسة مقارنة: ١١.

[٤٩] ينظر: مدخل الى اللسانيات: ٤٦.

[٥٠] ينظر: جذور اللسانيات في العربية: ٢٠٦.

[٥١] ينظر: اللغة العربية تأريخها ومستوياتها وتأثيرها: ٣٢.

[٥٢] اللغة العربية أصل اللغات العالمية: ١٩١.

[٥٣] اللغة العربية لغة بيولوجية ووجودية، الضمائر ووظيفتها الوجودية: مقالة على موقع coalitionarabe@gmail.com الائتلاف الوطني من اجل اللغة العربية.

[٥٤] ينظر: الالفاظ العربية والفلسفة اللغوية: ٥٩.

[٥٥] ينظر: نحو العلامة الوجوديّ تصوّر معرفيٌ جديدٌ في تحليل الخطاب القرآنيّ: ٥٥.

[٥٦] ينظر: نحو العلامة الوجوديّ تصوّر معرفيٌ جديدٌ في تحليل الخطاب القرآنيّ: ٥٤ ــ ٥٥.

[٥٧] اللغة العربية لغة بيولوجية ووجودية، الضمائر ووظيفتها الوجودية: مقالة على موقع https://iitilaf.org/ الائتلاف الوطني من اجل اللغة العربية.

[٥٨] ينظر: من اسرار اللغة: ١٥٨.

[٥٩] ينظر: تاء التأنيث بين اللغة العربيَّة الجنوبية القديمة (المسند) واللغة العربيّة (دراسة مقارنة): ٧١.

[٦٠] ينظر: أسباب تفوق لغة الضاد على اللغات الحية في الدقة التعبيرية ووفرة المعلومات في التعريف بجنسي الذكر والانثى: ٢٠.